عوامل بناء النفس

المحاضرات

محاضرة في الأردن

2020-01-13

عمان

الأردن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الغر الميامين، أمناء دعوته، وقادة ألويته، وارض عنا وعنهم يا رب العالمين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

بناء النفس بناء صحيحاً :

وبعد فيا أيها الأخوة؛ حديثنا اليوم ينطلق من آيةٍ في سورة التوبة يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

(سورة التوبة: الآية 109)

بناء المؤمن الإيماني قوي ثابت

(شَفَا جُرُفٍ هَارٍ) أي حافة هاوية بدأت بالانهيار، كأن البيت على طرف جبل لكن هناك سيول فانهار طرف الجبل، فهو أسس بنيانه هنا، أي وقف في هذا المكان فاحتمال السقوط كبير جداً، طبعاً الآية نزلت في مسجد ضرار، في الحديث عن هؤلاء الذين بنوا مسجداً ضِراراً للتفريق بين المؤمنين قريباً من مسجد قباء، فجاء الوحي بالأمر بهدم هذا المسجد، لأنه بني من أجل التفرقة، وليس من أجل الجمع، لكن عموم الآية تشير إلى أن الإنسان ينبغي أن يبني نفسه بناءً إيمانياً صحيحاً لا أن يكون بناؤه الإيماني ضعيفاً بحيث يكون على (شَفَا جُرُفٍ هَارٍ) فينهار بناؤه، بعبارة أخرى المؤمن في الأعماق هو ليس على شاطئ زلق مائل ينهار بأي لحظة، هو في الجبال فوق في الأعالي، فبناؤه الإيماني قوي ثابت لا تثنيه لا سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة عن دينه.

مواجهة الشهوات و الشبهات ببناء إيماني قوي :

نحن الآن في عصر الأشياء

نحن اليوم في عصر شهوات، وفي عصر شبهات، وفي عصر فتن، وفي عصر يمسي الرجل مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل، وهذا مُشاهد اليوم، الشهوات موجودة في الطرقات في الإعلام، في كل مكان، سواءً شهوة المال، أو شهوة العلو في الأرض، والسيطرة، أو شهوة النساء، وكلها شهوات، لكن رؤوس الشهوات أن يشتهي الإنسان الطرف الآخر، المرأة الرجل، والرجل المرأة، أو أن يشتهي مالاً، أو أن يشتهي منصباً وعلواً في الأرض، هذه أساسيات الشهوات، فالشهوات موجودة بكثرة اليوم، لأن العالم اليوم انتقل من مرحلة القيم والمبادئ إلى مرحلة المادة والأشياء، نحن كنا في عصر القيم ثم انتقلنا إلى عصر الأشخاص، واليوم مع الأسف في معظمه يتجه إلى عالم الأشياء، فقيمة المرء متاعه وما يملكه، وليست ما يحمله في داخله من إيمان، أو من مبادئ، أو من قيم، فالشهوات موجودة، من ناحية أخرى عندنا الشبهات، تفتح الإعلام يأتيك شخص في ظاهره مفكر إسلامي، ثم يطرح كل يوم شبهةً، هذا الدين، لأن أعداء الدين عندما رأوا أنه لا يمكن أن نلغي الدين من حياة الناس فلجؤوا إلى حيلةٍ خبيثةٍ ماكرة هي تفجير الدين من الداخل، بحيث ينتهي كمبدأ، وكقيم، وكحضارة، ويصبح مجرد فولكلور، فيلغون منه العقوبات، يلغون منه بعض المحرمات، تارةً تسمع من يقول: الخمر غير محرم بنص ثابت، وتارةً عبث بأحكام المواريث، وتارةً الإسلام ظلم المرأة، وتارةً الإسلام لم يعط للناس حقوقهم، ومن ذلك القبيل الشيء الكثير، فنحن أمام عصر فيه شهوات مستعرة، وشبهات كثيرة، فما لم نواجه ذلك ببناء إيماني قوي فإن الإنسان معرض لِأن ينحرف، أو أن يحيد عن ثوابته ومبادئه، لمجرد أن تعصف به شَهوةٌ فتتمكن من قلبه، أو شُبَهَةٌ فتتمكن من عقله، الشبهات تتمكن في العقول والشهوات تتمكن في القلوب.

ثبات المؤمن على الطاعة مع تعرضه لأشد أنواع الابتلاءات والفتن في دينه :

الآن كيف يبني الإنسان نفسه في هذا العصر؟

أولاً: سأضرب بعض النماذج ثم سأتجه إلى عوامل بناء النفس، هذا موضوعنا "بناء النفس".

زيد بن ثابت كما روى الحاكم أرسله النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ليتفقد سعد ابن الربيع في القتلى، أي النبي صلى الله عليه وسلم عقب المعركة لم يجد سعداً بن الربيع أحد الصحابة فأرسل زيداً ليتفقده، فقال له: إن رأيته، أي إن أدركته وهو حي فأقرئه مني السلام، وقل له يقول رسول الله: أخبرني كيف تجدك؟ أي كيف حالك؟ قال: فجعلت أبحث عنه في القتلى عقب أُحُد في أرض المعركة، حتى وجدته وأدركته وهو في آخر رمق، أي ينازع اللحظات الأخيرة في موته لكنه مازال صاحياً، فأدركته في آخر رمق به سبعون ضربة ما بين طعنة رمحٍ وضربة سيفٍ ورميةٍ بسهمٍ، فهو على فراش الموت، فقال: إن رسول الله يقرئك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال سعد بن الربيع: وعلى رسول الله وعليك السلام، قل له: إني والله لأجد ريح الجنة، بدأت أتنسم رائحة الجنة، إني والله لأجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار- هنا الشاهد-: لا عذر لكم أن يُخلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف، أي إن وصل المشركون إلى رسول الله ومازال فيكم شخص واحد حيٌّ يرزق فلا عذر لكم أمام الله، لا عذر لكم أن يخلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف، قال: ثم فاضت روحه.

{ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضي الله عنه وأرضاه في القتلى، وقال لي: "إن رأيته فأقرِئْه مني السلام، وقل له: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبرني كيف تجدك؟" قال زيد: فجعلت أبحث عنه في القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق، به سبعون ضربة؛ ما بين طعنة رمح، وضربة سيف، ورمية سهم، فقلت له: يا سعد! إن رسول الله يقرؤك السلام، ويقول: أخبرني كيف تجدك؟ قال: وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام وعليك السلام، قل له: إني والله لأجد رائحة الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يُخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف، ثم فاضت روحه رحمه الله }

(رواه الحاكم)

إذاً الذي أريد أن أقوله هذا سعد في اللحظات الأخيرة في حياته ثبت، وعلّم غيره دروساً في الثبات، هو لم يكن مجرد شبهة تواجهه، أو شهوة، هو على فراش الموت، هو يلقى الله الآن، ومازال ثابتاً على دينه بهذا الثبات، همه الدعوة، وهمه سلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهمه أن يبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بواجبه وبدعوته على أكمل وجه، هذا همه، هذا من عصر النبي صلى الله عليه وسلم.

الثبات الدائم على دين الله

نموذج آخر: العز بن عبد السلام: كان يسمى سلطان العلماء، الصالح إسماعيل تحالف مع الصليبيين وسلمهم بعض ديار المسلمين، فالعز بن عبد السلام أنكر عليه ذلك، وترك الدعاء له، وصار يتحدث بإنكار تلك الجريمة التي قام بها إسماعيل الحاكم، فبلغ ذلك السلطان فجاء به، وحبسه، ثم أطلقه بعد فترة، ومنعه من التدريس والخطابة، وكل المناصب التي كان قد تسلمها، ثم بعث إليه رسولاً، أي بعث له شخصاً، فجاء رسول السلطان إلى السلطان، سلطان العلماء العز بن عبد السلام، فقال له: ليس بينك وبين أن تعود إلى الخطابة والتدريس وفوق ما كنت عليه إلا أن تنكسر للسلطان، وتقبّل يديه، تقبل يده وترجع لك عزتك ومكانتك، فضحك العز بن عبد السلام، قال له: يا مسكين، والله لا أقبل أن يُقبّل السلطان يدي، فضلاً عن أن أُقبّل أنا يده، يا هذا أنتم في واد وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فهذا الثبات، الإمام أحمد بن حنبل في محنته يوم سجن، ثبت ثبات الأبطال، لو قرأنا في السيرة نجد ثبات هؤلاء المؤمنين على الطاعة، وعلى الخير، على دينهم، رغم أنهم كانوا يتعرضون لأشد أنواع الابتلاءات والفتن في دينهم.

قد يقول قائل اليوم: نحن أيضاً نتعرض؟ نعم، والله أنا أؤكد ذلك، لكن نحن ابتلاؤنا من نوع آخر، نحن في بلادنا بلاد المسلمين الحمد لله لا يتعرض إنسان لفتنة في دينه بمعنى أن يضغط عليه ليترك صلاته، ليترك إيمانه، لكن قد استعرت الشهوات من حولنا، والشبهات في الإعلام حتى صارت تضغط، أي الحمد لله الذي عافانا من ضغوط العذاب والألم، لكن هذه الضغوط أيضاً والله ثقيلة، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال:

{ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم؟ قال: بل منكم، قالوا: و لمَ؟ قال: لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون }

(رواه الترمذي)

الاعتصام بالله وقاية من الفتن

طبعاً هذا كان بعد أن استقرت الدعوة، أما أمثال بلال وعمار بن ياسر فذاقوا من الويلات حتى نشروا هذا الدين ما لم يذقه بشر، فأنا أقول: نعم، نحن في فتن، وفي شهوات، وفي شبهات، لكن إن شاء الله عندما يعتصم الإنسان بهدي الله عز وجل، ويكثر من الالتجاء، فإن الله يعصمه ويحميه من الفتن، والنبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد الخلق وحبيب الحق كان يكثر في دعائه وفي سجوده في قيام الليل تحديداً أن يقول: "اللهم يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ والأبصار ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"، فالثبات الثبات.

{ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" }

(رواه الترمذي)

مثل عن بناء الإنسان نفسه على شفا جرف هار :

في الطرف الآخر، أضرب فقط مثلاً كيف يبني الإنسان بنيانه على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، تعلمون قصة جبلة بن الأيهم الذي روى قصته ابن كثير في البداية والنهاية، وغيره كثير رووا القصة، جبلة بن الأيهم كان ملك الغساسنة، الغساسنة كلهم، له مكانة كبيرة في قومه، في عهد عمر بن الخطاب جاء إلى المدينة مسلماً ففرح به عمر كثيراً، لأنه ملك الغساسنة، وهذا إن أسلم تبعه خلقٌ كثير، وهو جاء ومعه قومه، حاشيته كلها، ودخل في الإسلام، فسيدنا عمر أكرمه أعظم إكرام، وهذا شأن المؤمن أن يعطي لكل ذي حقٍّ حقه، طبعاً المؤمن يكرّم الجميع، لكن لو كان الشخص له في المجتمع مكانة، أو شيء يكرّمه، حتى يشعر أن الدين لا ينقص الناس مكانتهم، وإنما تبقى له مكانته لكن وفق منهج الله، فأكرمه عمر أيما إكرام، ثم أنه خرج إلى الحج إلى مكة، وكان عمر في مكة في موسم الحج، كان عمر رضي الله عنه في مكة وهو خرج إلى مكة فطاف بالبيت، فبينما هو يطوف بالبيت إذ داس بدويٌ من قبيلة فزارة على طرف ثوبه فأنزله من على كتفه، فثارت فيه حمية الملوك، وربما ظن أنه تعمد ذلك، أو لم ينتبه له، والحاشية حوله، فالتفت إليه فضربه ضربةً هشمت أنفه، فما كان من هذا البدوي إلا أن ذهب إلى عمر بن الخطاب وشكا إليه ما فعل معه جبلة بن الأيهم، فجاء عمر بجبلة وجاء بالخصم، جاء بالخصمين، وهو قبل أيام كان يكرمه أعظم إكرام، لكن الآن هناك محكمة، قال له: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ قال: نعم، أنا أخذت حقي بيدي وهشمت أنفه، فقد تعمد إسقاط إزاري، قال: أرضه، لابد أن ترضيه، أو يهشمن الآن أنفك، إما أن ترضيه وإما القصاص، لا يوجد حل آخر، إما أن ترضيه ويعفو ويسقط حقه أو أقتص منك، قال: تقتص مني؟ قال: نعم أقتص منك، قال: هو بدوي، هو سوقة، ومن عوام الناس، وأنا ملك، ملك الغساسنة، قال: الإسلام سوّى بينكما، هنا عمر الآن لا ينطلق أبداً من إكرام هذا الرجل أو عدم إكرامه، أكرمه يوم كان يجب إكرامه، لكن الآن سيدنا عمر ينطلق من أننا في عصر المبادئ والقيم كما قلت قبل قليل، فليس هناك قيمة للأشخاص في عصر القيم، لا بد أن يأخذ الإنسان حقه، لن يسامحه، ولن يسترضيه عمر، إما أن ترضيه أنت أو يأخذ حقه، قال: أنا أرتد عن الدين، إذا الدين يأخذ له حقه أنا لا أريد هذا الدين، قال: شأنك وما تحب، أنت تحب أن تدخل في الدين أو لا تريد هذا شأنك، يقام عليك الحد، فقال: أمهلني حتى الصباح أريد أن أفكر، قال: فاحتمل في جنح الظلام مع حاشيته وهرب، ترك الدين وهرب، ما عرف عنه سيدنا عمر بعد ذلك شيئاً لأنه غادر، هذا بنى بنيانه على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، بعد حين يرسل عمر رضي الله عنه إلى بلاد الروم أحد الصحابة لينقل رسالة من عمر إلى بلاد الروم يدعوهم بها إلى الإسلام، فيصل بالرسالة فيقبلها حاكم الروم، ولا يوجد مجال لإنكارها، لأن دولة الإسلام كانت قوية جداً، لكنه لم يجب، أي لم يستجب للإسلام لكن أكرم الرسول لأنه رسول عمر أمير المؤمنين، ثم قال له هذا الحاكم: هل رأيت ابن عمك؟ أي قرابتك من العرب، قال: لا والله ما رأيته، قال: هل قابلته؟ قال: لا والله ما قابلته، قال: هل تحب أن تقابله؟ قال: أقابله، قال: فخذوه إليه، قال: فوجدت قصره وبيته أعظم مما وجدت على قصر القيصر، أعطاه أرضاً كبيرة، عاد ملك من ملوك العرب لعنده مرتداً ففرح به فأعطاه أقطاعاً وكذا، قال: فلما رأيته رأيته يشرب الخمر، رحب به وأجلسه، قال: فرأيته يشرب الخمر وسمعته يقول:

الحق فوق كل شيء

عرف الحقيقة، فلما عاد إلى عمر قال: لقيت جبلة؟ قال: لقيته، قال: أتنصر؟ قال: تنصر، قال: أشرب الخمر؟ قال: شرب الخمر، قال عمر: ابتعد فأبعده الله، هو ما أراد الحق فالله عز وجل صرفه، لكن عمر ما ندم، ما ندم عليه لأن الحق فوق كل شيء، لكن لو أن عمر تنازل عن المبدأ من أجل جبلة لضاع الإسلام، لقال الناس: القانون يطبق على ناس وناس، فسيدنا عمر الموضوع حدّي، إما أن يطبق الحد، أو أن تذهب، إذا كان إيمانك ضعيفاً لا يقوى أن يواجه حكماً من أحكام الشريعة فاذهب وشأنك، فهنا إذاً بين إنسان بنى بنيانه على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فبلحظة واحدة من أجل لطمة ترك الدين ومضى، وبين إنسان على فراش الموت وبه ما به سبعون طعنة وهو يحمل همّ الدعوة وهم الإسلام، إذاً هناك بناء للنفس.

عوامل بناء النفس :

1 ـ التقرب إلى الله بكل ما يرضيه :

الذي أريد أن أصل إليه هناك إنسان مبني بناءً صحيحاً، وهناك إنسان غير مبني، لم يبن إيمانه بناءً صحيحاً، فما عوامل بناء النفس؟ هنا موطن الحديث أو أهمية الحديث، الحقيقة العوامل كثيرة ويمكن أن نتكلم بها طويلاً لكن نلخّص بما يلي: أول ما تبنى به النفس التقرب من الله بالأعمال، وبالأقوال الظاهرة والباطنة بكل ما يرضي الله، كلما تقربت من الله اقتربت من القوي، والقوي يقويك جل جلاله، فالقريبون من الله لا يمكن أن يلتفتوا إلى الشهوات والشبهات، أي أنت إذا كنت مع ملك من ملوك الدنيا، كنت قريباً منه كثيراً، فهل يمكن أن تأكل همّ معاشك أو همّ أمورك أو همّ تسجيل أولادك في المدرسة؟ لا تأكل همّ شيء، تقول: أنا معرفتي بالملك، فأنا أسجل، أحل مشكلة بتوقيع، كله معه، فإذا كنت قريباً من ملك الملوك جل جلاله فلا شك أن النفس مبنية بناء قوياً، والتوحيد فيها قوي جداً، هذا بناء النفس بالتقرب إلى الله.

أول ما يتقرب به العبد من ربه

الآن انظروا إلى الحديث كما في البخاري: يقول صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى- الحديث قدسي- يقول الله تعالى: (وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إليَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه- أحب ما تتقرب به إلى الله الفرائض أن تؤديها بإتقان، بسننها، باطمئنانها، تطيل ركوعها وسجودها، تخشع فيها، تناجي فيها مولاك، - وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إليَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه- الآن انتهت الفرائض، أي انتهى الشيء الإلزامي، لكن كيف أتقرب أكثر يارب؟ - قال: وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ- الفرائض أديت الذي عليك، ولست مؤاخذاً أبداً، لكن بزمن الفتن والصعوبات والشهوات والشبهات يجب أن تضيف بعض الفرائض وتبدأ بالنوافل حتى يحبك الله- فإذا أحْبَبْتُهُ- اسمعوا الآن- كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها- ما معنى ذلك؟ - كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به- فلا يسمع شيئاً إلا بما يرضي الله، الآن شبهات، مجالس غيبة، مجالس فيها إسفاف بالكلام، عورات إلخ، هو لم يعد يستسيغ سماعها لأن الله أصبح سمعه الذي يسمع به، أي لا يسمع شيئاً إلا بما يرضي الله تعالى، لا يسمع شيئاً يغضب الله، هذا كنت سمعه الذي يسمع به - وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به- فلا ينظر إلا بنور الله، ولا ينظر إلا إلى ما يرضي الله، فيصرف بصره عن زخرف الدنيا، وعن مباهجها المحرمة، المحرمة وليس المحللة، المحللة يطلق بصره ما شاء لأنها في رضا الله، ثم كنت - يَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها- فلا تتحرك هذه اليد إلا لخير، إلا لدفع صدقة، إلا لمعروف، إلا لسلام على المؤمنين، إلا لمد الإصلاح بين الناس، هذه اليد - ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها- فلا يمشي إلا إلى مجالس العلم، إلى المساجد، إلى عمله الحلال، لا يمشي إلى دور اللهو، ولا إلى جلسةٍ فيها اختلاط مذمومٌ فاحش، ولا إلى مكانٍ يدار فيه الخمر، ولا، ولا،... إلخ، فيصبح الآن يمشي بنور الله، ويتحرك بنور الله، ويسمع بنور الله، وينظر بنور الله)

إذاً هو ثابت، هذا هو الثبات، إذاً أول ما يتقرب به العبد من ربه الفرائض ثم النوافل.

ثم يقول تعالى كما في الحديث القدسي: (وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ).

الآن تلتجئ إلى الله فيلجئك، تسأله فيعطيك، لأنك أصبحت تتحرك وفق منهج الله.

{ إنَّ اللَّهَ قالَ: مَن عادَى لي ولِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ }

(صحيح البخاري)

إذاً أول عامل من عوامل النفس هو التقرب إلى الله بما يرتضيه الله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، الظاهرة الصلاة، الباطنة السكينة في القلب، الحب، الشيء الذي لا يرى، التوجه إلى الله، النية الصافية، لكن ينبغي أن ننتبه هنا إلى أمرين قبل أن أنتقل إلى العامل الثاني من العوامل.

جاءني أمران قد سولت في نفسي أن أقولهما لكم، الأمر الأول: فلنحذر أن تتحول العبادة إلى عادة، فلنحذر أن تتحول العبادة إلى عادة، لأنه أحياناً ممارسة العبادة بشكل مستمر، الصلاة أو الصيام أو الحج أو الزكاة تنقلب إلى حركات وسكنات يؤديها الإنسان دون أن يحقق مقصود الله تعالى منها، والعبادات معللة بمصالح الخلق:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ

(سورة العنكبوت: الآية 45)

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(سورة البقرة: الآية 183)

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا

(سورة التوبة: الآية 103)

تصفية القلب من الحقد

فالعبادات معللة بمصالح الخلق، لكن عندما تتحول العبادة إلى عادة يؤديها الإنسان دون أن ينتبه إليها، ودون أن يخشع فيها هذه مشكلة.
الأمر الثاني أيضاً بالعبادة والذي أريد أن أقوله أن ننتبه كما ننتبه إلى أعمال الجوارح أن ننتبه إلى أعمال القلوب، أي أن يصفي الإنسان قلبه من الحقد، من الحسد، من الكراهية، من أن يريد الشر بالناس والعياذ بالله، أي أن يصبح قلبه صافياً كما هي جوارحه متجهة لله تعالى معاً، الأمران معاً، إذاً أولاً التقرب إلى الله.

2 ـ المجاهدة :

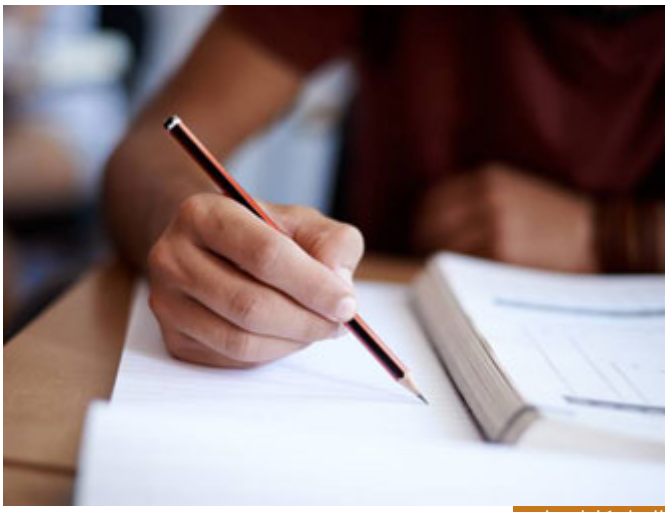

الحياة كلها مجاهدة

ثانياً المجاهدة: النفس أخواننا حتى تبنى بناء صحيحاً تحتاج إلى مجاهدة، من حياتنا العملية قبل أن نتكلم في الشرع، هل هناك إنسان ما جاهد نفسه حتى يتعلم إذا أراد أن يحصل على شهادة؟ لا، تحتاج إلى مجاهدة، إذا أراد أن ينام للساعة الحادية عشرة هذا أفضل له، ولكن أول محاضرة تبدأ في الجامعة الساعة ثمانية، فهو يجب أن يستيقظ في الساعة السابعة، فهي عملياً كل شيء الله خلقه بالحياة تريد أن تصل إليه، التاجر، المعمل، المصنع، ما من أحد بنى شيئاً بالحياة من غير مجاهدة، بعموم الناس لا يوجد إنسان حتى ولو جاءه شيء من غير مجاهدة إذا ما جاهد ما استطاع الحفاظ عليه، أي لو جاءه شيء، ميراث مثلاً مال، يضيعه إذا ما جاهد، وحافظ عليه، يريد أن يبني، يريد أن يصنع علاقات وكذا، فالحياة كلها مجاهدة حتى أمور الدنيا، والجهاد هو بذل الجهد في أقصر جهد لتحقيق شيء ما، أيضاً أمور الشرع وأمور الدين إن لم يكن فيها مجاهدة للنفس فلا تنتظر أن تحصّل شيئاً، قال البوصيري:

لا يوجد طفل لم يبك حتى ترك الرضاعة، كل الأطفال بكوا، لكن إذا تركته يرضع يصبح عمره سبع سنوات وهو يرضع، ليست عنده مشكلة، وأيضاً النفس إذا تركتها، الاستيقاظ للفجر يحتاج إلى مجاهدة، الفراش وثير ودافئ، ودرجة الحرارة في الخارج تحت الصفر فطبعاً تحتاج مجاهدة، الفراش يدعوك في كل لحظة للنوم فيما بعد تقوم إلى الصلاة، فكل الحياة مجاهدة، هي جهاد، انظروا إلى قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا

(سورة العنكبوت: الآية 69)

سبل الله لا تهدى إلا لمن جاهد، هنا الجهاد ليس جهاد المعركة، الآية مدلولها واضح (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا) أي في الأمر والنهي، في الطاعات (جَاهَدُوا فِينَا) أي جاهدوا في تنفيذ أوامر الله عز وجل، أي أمر، فلما جاهدوا فينا هداهم الله إلى سبله جلّ جلاله، الإنسان عنده طبع وعنده تكليف، من تناقض الطبع مع التكليف يدفع سبب دخول الجنة ، قال:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ

(سورة النازعات: الآية 40 -41)

التطابق التام بين الفطرة والمنهج

فالنفس تقول لك: افعل شيئاً وأنت تجاهدها وتعاكسها، هذه هي الجنة، (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) لكن عندما يجاهد الإنسان نفسه لتنفيذ تكليف الله فهو في الوقت نفسه يوافق فطرته، انظروا من رحمة ربنا عز وجل هناك طبع، كلنا نحب أخذ المال، كلنا نحب النظر، ولو كان إلى حرام، كل الناس، لكن فطرتنا هي ألا نسرق، ألا ننظر إلى حرام، فطرة، لكن طبيعة النفس أن تفعل الشيء السيئ، فأنت عندما تخالف طبعك توافق منهج ربك، وتوافق الفطرة التي فطرت عليها:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ

(سورة الحجرات: الآية 7)

فنحن نكره الفسوق ونحب الإيمان، لكن طبيعة الجسم وطبيعة الحياة تدفعنا إلى ترك المنهج فنعارض طبعنا، فنوافق فطرتنا، فنحقق منهج الله تعالى،

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

(سورة الروم: الآية 30)

المؤمن نيته خيرٌ من عمله

فهذه المجاهدة (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) ومن أعظم المجاهدة مجاهدة النيات، أحياناً الإنسان يفعل أشياء في ظاهرها يريد بها وجه الله، لكن النية ليست صافية، فهل يجاهد الإنسان نيته؟ نعم، يجب أن تجاهد النية قبل أن تجاهد في العمل، النية نفسها هل هي خالصة لوجه الله أم لا؟ يقول الإمام أحمد لابنه: يا بني انو الخير فإنك بخير ما نويت الخير، مادمت تنوي الخير فأنت بخير، المؤمن نيته خيرٌ من عمله، والكافر نيته شرٌ من عمله، فالمؤمن ينوي أكثر مما يفعل من الخيرات، والكافر ينوي من الشرور أكثر مما يستطيع فعله، والإنسان يحاسب على نيته، "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ":

{ عن عُمَرَ بْن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى،

فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ }

(أخرجه البخاري ومسلم)

أي ثواب الأعمال مبني على النية الصحيحة، فيجاهد الإنسان نفسه بالنيات، فإن وجد في نفسه رياءً، أو وجد في نفسه حباً للظهور، أو نحو ذلك، فيجاهد نفسه، كيف يجاهدها؟ كان هناك علماء كبار، ذات مرة كان الشيخ الشعراوي رحمه الله رووا عنه قصة وهي صحيحة، رواها عنه أقرب الناس له، أنه خرج من محاضرة، ويبدو أنه أبدع فيها وتألق، فحدثته نفسه كثيراً، فالنية تزغزغت، فقال للسائق: قف على اليمين، توقف، فنزل إلى المسجد فلحقوا به فإذا هو بالحمامات والمطاهر ينظفها، قالوا: ما بك؟ قال: والله نازعتني نفسي بالظهور فأحببت أن أؤدبها، أحببت أن أؤدبها، فالإنسان أحياناً إذا وجد أنه معجب بنفسه، وشعر بالغرور يكسرها بطاعة الله، طبعاً لا يكسرها ويذل نفسه للناس، لا، حاشا لله، لكن بعمل صالح من غير أن يدرى فيه، بإنفاق زيادة قليلاً، من دون أن يخبر أي إنسان، بينه وبين الله، هكذا تجاهد النية، مجاهدة النيات.

3 ـ المحاسبة :

حقوق العباد قبل حقوق الله

بعد المجاهدة تأتي المحاسبة، هناك مجاهدة، وهناك محاسبة، الإنسان يحاسب نفسه قبل العمل وبعد العمل، قبل العمل لمن سأعمل هذا العمل وهل هو وفق شرع الله؟ وبعد العمل هل قصرت فيه أم هل أديته كما يرضي الله؟ التاجر آخر يوم يعمل محاسبة، وإذا لم يفعل محاسبة بعد فترة تفلت الأمور، ولا يعرف ما الصادر ولا الوارد، فالإنسان مساءً على فراشه قبل النوم عليه أن يفعل محاسبة على النهار، هل أسأنا لأحد؟ يا ترى اليوم الموقف الذي حصل بيني وبين فلان كنت غاضباً فتكلمت كذا وكذا هل كلامي كان صحيحاً أم انتصرت لنفسي وهو المحق؟ إذا هو المحق أتصل به بالهاتف، وأعتذر منه، حقوق العباد قبل حقوق الله، وأنا أقولها وأنا واثق مما أقول، معاذ الله أن يكون حق الله في نظرنا قليل، لكن حق الله عز وجل لأنه جل جلاله عظيم، ورؤوف، ورحيم، والصلحة بلمحة، قل له: يارب، يقول لك: سامحتك، أما حق العباد فحقوق مبنية على المشاححة، يريد حقه منك، فلا تنتظر إلا أن يأتي يوم القيامة وعند الناس حقوق لك، فالإنسان يحاسب نفسه دائماً، المحاسبة تربي النفس، وتهذبها، وتبنيها بناءً صحيحاً.

4 ـ طلب العلم :

أيضاً من الأمور والآن سأبدأ ببعض الاختصار لأنها كثيرة، طلب العلم.

هذا المجلس مجلس بناء للنفوس، أنا وأنتم نبني نفوسنا بمجالس العلم، مجالس العلم تبني النفوس، يخرج الإنسان منها يومين أو ثلاثة يبقى على صلة بالمنهج، طلب العلم.

5 ـ مجالسة الصالحين :

أيضاً مجالسة الصالحين، وبعكسها ما الذي يهدم النفوس؟ مجالسة السيئين، بذكر الصالحين تتعطر المجالس، وبذكر اللؤماء تتعكر المجالس، فالإنسان إذا جلس مع الصالحين، بعمله، ببيته، بسهرته، حتى وهو جالس يمازح، فتتهذب النفس وتبنى بناءً صحيحاً.

6 ـ تدبر كتاب الله تعالى :

تدبر كتاب الله تعالى

من الأمور التي تبني النفس والمهمة جداً جداً تدبر كتاب الله تعالى، هذا المنهج منهج الله بين أيدينا، لابد من أن نقرأ فيه كل يوم، هذا الكتاب المقرر لابد أن يقرأ يومياً أبداً، و الذي يقصر من أخواننا وأنا أكثركم تقصيراً نسأل الله أن يعفو عنا جميعاً، لكن كتاب الله لا ينبغي أن يهجر، انظروا في القرآن الكريم هناك آية واحدة يشكون بها، نسأل الله ألا نكون من هؤلاء، يشكو بها رسول الله أمته، آية واحدة، شكوى وحيدة:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً

(سورة الفرقان: الآية 30)

هجروه، أي علقه في البيت، ويضع لوحة بصدر محله التجاري:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا

(سورة الفتح: الآية 1)

وفي البيت:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ

(سورة الإسراء: الآية 80)

وكله جيد وممتاز نحن لا ننكر ذلك، لكن بالأحكام، بالواقع، بالحياة، لا يفتح المصحف من رمضان إلى رمضان لنبدأ بختمة، وبعدها نغلقه لرمضان الذي بعده، لا، لابد يومياً من حصة مع المصحف، ولو كانت صفحة أو صفحتين أو نصف صفحة على قدر المستطاع، إذاً تلاوة خمس صفحات أقل شيء، وإذا مع تدبر ثلاث آيات أو أربع بتدبر المعاني، تفهمهم، تفهم معانيهم، مدلولهم، فتدبر القرآن يبني النفوس.

7 ـ الدعاء :

الدُّعاءُ هوَ العبادةُ

وآخر ما أقوله في بناء النفس الدعاء، لأننا بحاجة للالتجاء إلى الله عز وجل، لابد في بناء النفس من أن تدعو الله دعاء يومياً، بعد كل صلاة، وخاصةً صلاة الفجر اجعل لها حصة دعاء، هذا الدعاء بينك وبين الله هو أولاً صلة وصل بغض النظر عن النتائج، يا ترى ربنا عز وجل أراد أن يحقق ما دعوت في الدنيا أم ادخره لك إلى يوم القيامة أم غفر لك بقدر ما دعوت؟! نحن مستسلمون راضون، لكن لا بد من هذه الصلة، قال صلى الله عليه وسلم: " الدُّعاءُ هوَ العبادةُ " (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) ما قال: عن دعائي، لأن الدعاء هو العبادة (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ):

{ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: الدُّعاءُ هوَ العبادةُ، ثمَّ قالَ: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)(سورة غافر: الآية 60) }

(رواه الترمذي)

فالدعاء أولاً أن تعلم أن لك رباً يسمعك، وأنه قدير على إجابتك، وأنه يحبك، وإلا لما دعوته، فكل هذه المعاني في الدعاء، فالإنسان يدعو الله يا رب ثبتني في الفتن، يارب أبعد عني الفتن، يا رب لا تجعل مدخلاً من مداخل الشهوات، ولا من مشاغل الشبهات لا إلى عقلي، ولا إلى قلبي، إذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك، لأننا نحن في النتيجة نعيش للآخرة، فإذا كان هناك فتنة ونسأل الله السلامة وسنتبعها لا يا رب اقبضني قبل أن تفتني في ديني.

كان سيدنا عمر إذا أصابته مصيبة قال: " الحمد لله ثلاثاً: إذ لم تكن في ديني- كل مصيبة إن لم تكن في الدين محلولة، لكن إذا الإنسان مصيبته في دينه، أنه ابتعد عن الصلاة، ابتعد عن العبادة، بدأ يرتاد الأماكن التي لا ترضي الله، أماكن اللهو، فهذا مصيبته هي أكبر المصائب- كان يقول: الحمد لله ثلاثاً، إذ لم تكن في ديني، وإذ لم تكن أكبر منها، وإذ ألهمت الصبر عليها"

نسأل الله تعالى أن نبني نفوسنا جميعاً بناءً إيمانياً صحيحاً قوياً لا تثنيه لا سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، لا تثنينا عن مبادئنا، وديننا، وقيمنا.

والحمد لله رب العالمين